

دور الاتجاهات النفسية في إذكاء النزاعات الأهلية

د. صورية زاوشي

كلية الإعلام والاتصال

جامعة الجزائر - 3

الملخص:

يقضي الحديث عن دور الاتجاهات النفسية في إذكاء النزاعات الأهلية، إفتراض البيئة النفسية للأفراد والجماعات كمستوى أولي للتحليل، بالطبع في علاقتها بسوسيوجيا البيئة الوطنية للمجتمعات، على اعتبار أن النزاعات الأهلية تُصنع إبتداء من المجال النفسي للفرد عبر تصاعد المشاعر المضادة، والكراهية والعدوانية والحقد، وغيرها من الإنفعالات السلبية، المنتجة لعلاقات التوتر والإضطرابات المجتمعية، التي تخلق في نفس الفرد جملة من التوترات والميل نحو الإندفاعات النفسية، التي قد تبلغ درجة العنف والإنتقام، أو الإقتصاص المجتمعي، مما يصنع في ذهن الأفراد تصور ضرورة رد إعتباراته، أو الأخذ بثأره بكل الوسائل المتاحة، وخاصة منها الحادة التي تعتبر الأبسط والأسرع في الحصول عليها.

ولهذا تتكون الإتجاهات النفسية السلبية وسيكولوجية الإنتقام، وتتطور في نفس وذهن الأفراد، لدرجة أن تصبح نفس الفرد العين تمثل إحدى أهم التهديدات الأمنية للمجتمع، التي تنتقل من المستوى الوطني لتصل إلى غاية الدولي منها. ومن هذا المنطلق والتي بواسطتها يمكن تبين دور الإتجاهات النفسية في إنتاج مخرجات عدم الأمن من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: المفهمة النظرية للإتجاهات النفسية.

المحور الثاني: مكونات الإتجاهات النفسية .

المحور الثالث: تكوين الإتجاهات السلبية للأمن والنزاعات الأهلية.

The psychological attitudes role to drive civil conflicts

Abstract:

The role of psychology attitudes to create and escalate the civil wars, requires that the psychological environment of individuals as primary analysis level, of course in relation with national environment sociology for societies. At consideration that the civil wars were made primary in individual psychological domain, through escalate the anti-emotion, social hate,

aggression and other negative deliriums, which produce tension relations and societal turbulences.

We can treat the role of psychological attitudes to produce the un-security outputs: first, Theoretical conception psychological attitude, psychological attitudes components in the second, and finely, The compose of negative psychological attitudes and civil conflicts.

مقدمة:

تظهر أهمية الإتجاهات النفسية في تحليل وفهم الدوافع الخلفية العميقة لظهور النزاعات المدمرة، سواء المتعلقة بالصدامات التقليدية بين جيوش الدول على أرض المعركة، أو تلك النزاعات الأهلية الطويلة والممزقة للبنية السوسيولوجية للمجتمعات؛ عندما تغذي إتجاهات الكراهية،

والحقد، ومشاعر الإضطهاد، والحرمان، وغيرها من المصادر المنتجة للعداوات والمحفة لسلوك الحرب في تنوع طبيعة المواقع الجغرافية للدول والتضاريس عبر مختلف مستويات البيئة الاجتماعية من القومية، إلى ما فوق القومية، لتصل إلى درجة العالمية، وتتمدد عبر الحدود، بشكل يستهدف أمن وإستقرار الشعوب، فسيكولوجية الإنتقام لا تتسم بالثبات ولا بالتشبع، حيث تصبح في ذهن الفرد ضرورة لابد منها من أجل ضمان إستمرار بقائه وإثبات وجوده في خلية المجتمع، من جهة، وفرض سيطرته وإضطهاده، من جهة أخرى.

ومن منطلق أن الحياة أرض للمعركة إما أن تقتل أو أن تُقتل أنت فيها، ولما صارت لهذه الإتجاهات النفسية دورا في تهديد أمن وإستقرار الدول، ونشوب النزاعات الأهلية والطائفية، نحاول من خلال هذه الدراسة البحث في حيثيات هذه الإشكالية. وذلك عبر طرح التساؤل التالي: كيف تؤثر الإتجاهات النفسية في نشوب وإذكاء النزاعات الأهلية وتهديد النسيج السوسولوجي؟ وكإجابة مؤقتة عن هذا التساؤل العام يتم توظيف الفرضية التالية: تحدث النزاعات الدولية بسبب تصاعد المشاعر السلبية للبيئة النفسية للأفراد.

المحور الأول: المفهمة النظرية للإتجاهات النفسية

جذب مفهوم "الإتجاه Attitude" إنتباه الباحثين في أربعينيات القرن العشرين، كنتيجة لتصاعد القوميات الأوروبية، وتقويتها للأمن العالمي بشكل مأساوي في الحرب العالمية الثانية، وإستمرت في تحريك ميول العداء خلال فترة الحرب الباردة، سواء بين القوى العظمى أو الضعيفة منها، الجانب المهم في التحليل الأمني للعلاقة بين الإتجاهات النفسية وظاهرة نشوب النزاعات الأمنية هو أن الإتجاهات القومية خلال فترة ثلاثينيات القرن العشرين قد تصاعدت من المستوى الوطني/المحلي إلى نظيره الإقليمي، بشكل أكثر تحديدا تشكلت المشاعر القومية في المجالات النفسية لعدد من الشعوب الأوروبية، وتغذت من النفسية العميقة لشعوبها والقائمة على معنى تفوق الجنس الأبيض والعرق الآري، الذي يجب أن تخضع له الشعوب الأخرى عبر العالم، وذلك بسبب المتطلبات الأمنية العابرة للحدود الإقليمية، لتشمل كل المنطقة الأوروبية ومن ورائها مناطق العالم.

يتطلب تحليل الرابطة الوثيقة بين الإتجاهات النفسية والنزاعات الأهلية، التطرق إلى تحديد المضامين المفاهيمية لمصطلح الإتجاهات النفسية المقترحة من قبل الباحثين والمنظرين في حقل علم النفس الاجتماعي، وكيفية توظيفها لدراسة الموضوع.

ومن ضمن التعاريف ذات الصلة بالإتجاه النفسي بأنه ذلك الرأي الذي يرى بأنه: "تنظيم نفسي يكتسبه الفرد من الخبرات التي يمر بها ويحدد نشاط الفرد بصفة مستمرة حيال المثيرات التي ترتبط بموضوع الاتجاه"⁽¹⁾.

وهو تعريف يؤكد على العلاقة الوثيقة بين الخبرة السابقة واكتساب الإتجاه النفسي، الذي سوف يوجه الموقف السلوكي للفرد إزاء موضوعات البيئة الإجتماعية التي يتفاعل معها، وفي العلاقة بموضوع التحليل المركزي.

يظهر أن الخبرات المؤلمة عادة تكون مسؤولة عن تكوين الاتجاهات النفسية السلبية، التي تشكل بدورها مصدرا رئيسي لإنتاج علاقات العنف مع مكونات وفواعل البيئة الفيزيقية، والعكس صحيح، وأن الاتجاهات السلبية تنعكس في ردود أفعال عنيفة، أو على الأقل غير مؤيدة، وإلى عدد من أشكال السلوكيات المضادة للمجتمع، وفي حالة ما إذا تم تسييس هذه الاتجاهات، تتحول إلى أعمال تمرد، أو ميول انفصالية أو إرهاب.

كما تم تعريف (الإتجاه النفسي) بأنه: "رد فعل وجداني إيجابي أو سلبي، نحو موضوع مادي، أو مجرد أو نحو قضية مثيرة للجدل"⁽²⁾.

ويمثل الجانب ذو العلاقة الوثيقة بالقضايا الأمنية، المستوى المتصاعد لردود الفعل السلبية أو الإيجابية، بحيث أنه عندما تصل إلى الحالة المزمنة تتحول إلى مصدر كبير لتقويض الإستقرار الأمني في الحالة السلبية، أو تعزيزه في الحالة الإيجابية، والنتيجة المهمة هي تحول الإتجاهات النفسية كرد فعل إيجابي أو سلبي، وتكون ذات علاقة بالأمن أو عدم الأمن على التوالي، إلا أنها تدفع عندما تتصاعد إلى مستوى التراكم أو الحالات المزمنة بالفرد أو الجماعة نحو التصرف بإتجاه البيئة الأمنية بالعطب أو الحماية، وهذا ما جاء في التعريف الذي ينظر للإتجاه النفسي بأنه تكوين فرضي، يشير إلى توجه ثابت أو تنظيم مستقر، وإلى حد ما، لمشاعر الفرد ومعارفه، وإستعداده للقيام بأعمال معينة، نحو أي موضوع من موضوعات التفكير، عينية كانت أو مجردة، ويتمثل في درجات من القبول والرفض لهذا الموضوع، ويمكن التعبير عنها لفظيا أو أداتيا⁽³⁾.

وتتمحور النقطة الجوهرية والمشاركة المضمنة في التعريف السابق والتعاريف اللاحقة في أن الإتجاهات النفسية تمثل الخلفية المثبتة في البنية الإنفعالية للفرد، والموجهة للسلوك الفعلي في البيئة الإجتماعية، وفي إعادة الناس عندما تكون لديهم خلفية إنفعالية سلبية إزاء البيئة، سوف تدفع بهم إلى التصرف على نحو غير مناسب، وفي بعض الأحيان يتبنون السلوك التخريبي كطريقة للتعبير عن الإتجاهات السلبية، أو على الأقل يتعاطفون مع موضوعات ومكونات البيئة الإجتماعية، والعكس صحيح.

وتشمل الإتجاهات النفسية كظاهرة إجتماعية - سياسية جميع مظاهر الحياة والمواقف تجاه الآخرين، والأفكار التي يجد الناس أنفسهم بحاجة لتحديد موقفهم منها بالتأييد، أو الرفض أو الحياد إزاءها.

ولمزيد من توضيح الإتجاهات النفسية، يمكن ذكر بعض التعاريف ذات العلاقة والتي ترى بأنها "مجموعة أساليب القبول أو الرفض إزاء موضوع إجتماعي أو نفسي أو جدي معين"⁽⁴⁾ وبأنها "نزعات تؤهل الفرد للإستجابة لأنماط سلوكية محددة نحو أشخاص أو أفكار أو حوادث أو أوضاع أو أشياء معينة، تؤلف نظاما معقدا تتفاعل فيه مجموعة كبيرة من المتغيرات المتنوعة"⁽⁵⁾، وهي "إستعداد نفسي تظهر محصلته في وجهة نظر الشخص حول موضوع من الموضوعات، سواء كان إجتماعيا أو اقتصاديا أو سياسيا، أو حول قيمة من القيم كالقيمة الدينية أو الجمالي، أو النظرية أو الاجتماعية أو حول جماعة من الجماعات، كجماعة النادي أو المدرسة أو المصنع، ويعبر عن هذا الإتجاه تعبيرا لفظيا بالموافقة عليه، أو عدم الموافقة، أو المحايدة، ويمكن قياس التجاه بإعطاء درجة للموافقة والمعارضة والمحايدة"⁽⁶⁾.

ويظل الجانب ذو العلاقة بقضية الأمن محدد في تصاعد مثل هذه المواقف إلى الحالات المزمنة، التي تخلق زخما نفسيا، يشكل قوة دفع سلوكية نحو الخيارات الخطيرة، التي تقوض أمن الآخرين وإستقرار البيئة الإجتماعية ذات العلاقة.

ولقد أفرزت هذه التعاريف المتعلقة بمصطلح "الإتجاه النفسي"، العديد من الخصائص النفسية. وربما كلها ذات علاقة معينة بقضية الأمن في مستواه المحلي، أو دون وطني، وذلك على إفتراض أن الإستقرار أو عدم الإستقرار في المجال النفسي ما أن يلبث حتى يتدفق إلى المحيط الإجتماعي الملموس للفرد، كتعبيرات وردود أفعال إيجابية، أو سلبية، والتي عندما تتراكم أو تتصاعد إلى المستويات المزمنة تنتج الآثار الأمنية، ذات الإمتدادات العامة للمجتمع في شكل إستقرار أو إضطرابات وإحتلال الشوارع أو صدامات بين قوات الأمن والغازيين، تكمن أهمية "الإتجاه النفسي" في خاصية تأثيره على البنية الإدراكية للإنسان، بحيث يفرض عليه نوعا من التفكير حول البيئة الخارجية سلبا أو إيجابا، وذلك من خلال إهمال بعض الجوانب، والتركيز على أخرى ذات العلاقة المباشرة بالإتجاه القائم في الذات الفردية، فعلى سبيل المثال، الموقف المؤيد للحكومة عادة ما يدفع الأفراد إلى تركيز الإنتباه فقط على الجوانب الإيجابية والأنشطة والإنجازات المحققة، في مقابل إهمال متزايد لجوانب الإخفاق والقصور وعيوب السياسة، حتى ولو كانت بارزة أو شائعة، والعكس صحيح. وبسبب العلاقة الوثيقة بين الاتجاه النفسي والإدراك الاجتماعي للبيئة الخارجية، صنف الباحثون في علم النفس الاجتماعي⁽⁷⁾ المكون المعرفي كجزء من تكوين مضمون الاتجاهات النفسية.

ومن حالة الخاصية الأخرى التي يمكن اشتقاقها هو أن الإتجاهات النفسية هي حالة مكتسبة تتشكل ضمن البيئة الانفعالية للفرد، عبر سياق مجتمعي معرفي، ومن خلال الاستقبال المستمر للمعلومات، والإشاعات، والدعاية؛ سواء من مصادر رسمية محددة، أو بواسطة الإتصال الاجتماعي

اليومي للفرد التلقائي، وهذا يعني أنها كما تتشكل بطريقة مكتسبة يمكن أيضا تغييرها، وكما هي عملية تكوين تلقائية أو عفوية وآلية كنتيجة للاتصال الاجتماعي بين الفرد والمحيط الاجتماعي، ويمكن أن تكون عملية مقصودة أو مغرضة، من أجل تحقيق حالة تفكيك للرأي العام، وإحداث الانقسامات المجتمعية، وعزل المواطنين عن حكوماتهم، خلق المشاعر المناهضة للحكومات، شيطنة الحكومات في نظر مواطنيها، وعزل القوات المسلحة المنخرطة في القتال عن شعوبها، وخلق الاضطرابات المجتمعية من أجل إسقاط الحكومات، وما إلى ذلك.

ويتميز الجانب الذي يضيف حالة التعقيد على دور الاتجاهات النفسية في تحريك وتغذية النزاعات والاضطرابات الأهلية بخاصية الذاتية، وعدم خضوعها للاستدلال المنطقي، على اعتبار أنها تشتق قوتها من المجال النفسي للأفراد وليس البيئة المعرفية القائمة على المنطق والتحليل العقلي، للقضايا والأفكار والمعلومات، بمعنى آخر، أنه يمكن أن تبني الاتجاهات بناء على معلومات غير منطقية، أو متضاربة أو حتى إشاعات، إذا كانت منسجمة مع الميول النفسية للأفراد، أو كانت تلي دوافع نفسية معينة، أو حاجات مفقودة، أو لأي اعتبار نفسي آخر،

في مثل هذه الظروف وبهذه الطريقة، وتشغل الاتجاهات النفسية بشكل مأساوي باتجاه تقويض الاستقرار الأمني، أو خلق الصدامات المسلحة بين الجماعات المختلفة؛ وتعتبر هذه الوضعية الاستراتيجية الهشة التي تتصاعد فيها حدة النزاعات، عندما يكون هناك انهيار شبه كامل للبيئة النفسية للأفراد، هي التي تبني عليها الاتجاهات السلبية الحادة التي توفر قوة الدفع الحادة للسلوك العنيف، بإتجاه عطب البيئة الاجتماعية، وبواسطة الأشكال المختلفة في استخدام العنف، دون وجود سبب منطقي يبرر التسبب في العطب، والمبالغة الذاتية المزمنة غير المنطقية التي تغذي بشكل وافر الاتجاهات السلبية الحادة.

ومن ناحية أخرى، تتغذى الاتجاهات النفسية السلبية بشكل متزايد من القضايا المثيرة للجدل والأفكار المتطرفة، لأنها تشكل مصدر دفع وتأييد لهذه الاتجاهات النفسية، بواسطة نقطة التقاطع بينهما، وهي أنها تؤدي إلى تقسيم علم الاجتماع إلى أسود وأبيض، بحيث أن الأفراد يقفون على طرفي نقيض في طرح الأفكار، معاكسة الجماعة وتبني السلوك المناهض للمجتمع العام، فهو السلوك المنمط وفق المعايير الذاتية للشخصية والدوافع الخاصة، دون الأخذ في الاعتبار متطلبات السلوك الاجتماعي المقبول من قبل المجتمع العام، مما يحولها إلى مصدر منتج لعدم الاستقرار الأمني، أو على الأقل خلق حالة الخوف داخل المجتمع⁽⁸⁾.

وقد تبنت المدرسة السلوكية خلال الخمسينيات من القرن العشرين الظواهر الدولية، عبر تبني المنهج السلوكي للأفراد والجماعات في تفسير قضايا الأمن والسلام، حيث مثلت المقاربة التجريبية في

مقابل الميتافيزيقية التي تمثل اللبنة الأولى للإهتمام بالعلاقات السلوكية والتفاعلات السياسية، على حساب التركيز على الوثائق والدساتير والنظم والمؤسسات، إلى أن بدأت تحل النظرة السلوكية كأنموذج معرفي في علم النفس، محل الأنماذج السابقة، وأصبحت مبادئ المنهج السلوكي تفسر مختلف الخلفيات النظرية للاتجاهات النفسية، ودورها في نشوب النزاعات الأهلية.

المحور الثاني: مكونات الاتجاهات النفسية والإدراكات الأمنية.

تنطوي مناقشة مكونات الاتجاهات النفسية على أهمية كبيرة، بسبب علاقتها المباشرة والجوهرية بموضوع النزاعات الأهلية، وذلك بناء على الافتراض الأساسي الذي يقضي بأن الاتجاهات النفسية هي المجال الحيوي الذي تتفاعل ضمنه الميول النزاعية، عندما يتوفر المناخ الاجتماعي-السياسي المشجع والمنسجم مع ميول المجال النفسي، وتتصاعد النزاعات الأهلية وتنتشر نحو دائرة تتوسع تدريجياً في المجتمع، فالأزمة الأمنية في تونس 2010، ليبيا 2011 وسوريا 2011، انطلقت من مدينة معينة، ثم إنتقلت تدريجياً نحو المدن الأخرى، لكن لم تتفاعل مثل هذه الأزمات في الواقع المجتمعي الفعلي من فراغ، وإنما كانت هناك بيئة خلفية ترعرت فيها الاتجاهات السلبية الحادة والواسعة، ضد حكومات هذه الدول، والواقع يشير إلى التمعن في الآثار الأمنية للاتجاهات النفسية الحادة، إلى حالة التركيب في مضمونها وطريقة عملها، في توجيه السلوك الفعلي للأفراد والجماعات، وهو ما يعبر عادة عن حالة التركيب في العلاقات الوثيقة بين مكونات الاتجاهات وتفاعلها في اعتماد متبادل، بحيث أن كل مكون منها يغذي ويعزز مخرجات باقي المكونات الأخرى.

وبناء على تطور مسارات علم النفس الاجتماعي ومفاهيمه حول الإتجاهات النفسية، فإن هناك ثلاثة مكونات رئيسة له وهي:

1. المكون العاطفي: الذي يتضمن مجموعة من المشاعر والانفعالات التي يحملها الفرد نحو موضوع معين، مثل الحب/الكراهية، والحق/التسامح، والأمن/الخوف، وتتحول مثل هذه المشاعر إلى صور من التخطيم العشوائي (الحالة السلبية) أو تعزيز تماسك (الإيجابية) البيئة الفيزيقية، ليس هذا فحسب، وإنما تتحول أيضاً البيئة النفسية إلى مصادر مغذية للمشاعر المعادية والعدائية، كنتيجة لاستمرار التقديرات السلبية الحادة حول المواقف والموضوعات والأفكار والأشخاص في البيئة الاجتماعية، فالعواطف أو المشاعر المحركة للاتجاهات النفسية السلبية عادة ما تعطي قوة دفع متزايدة لتصعيدها إلى مستوى القدرة على التدمير أو تنفيذ الاعتداء، للإضرار بأشياء معينة، أو إلحاق العطب بمنشآت معينة، أو التسبب بإلحاق الأذى بفواعل معينة.

وتظهر العديد من الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها حول المكون العاطفي في الاتجاهات السلبية على وجه التحديد، مثلاً عادة ما يرافق اتجاه الرفض عاطفة الكراهية أو الحقد أو الخوف

مثلا، كرفض الشخص المهاجرين من جنسيات أخرى، الذي عادة ما يكون مترافقا مع عاطفة الكراهية، أو الخوف على فقدان منصب الشغل، أو قيام المهاجرين بأعمال عدوانية، ومن وراء ذلك تأييد ودعم الحركات والأحزاب المتطرفة المناهضة للمهاجرين في الانتخابات، أو أي إجراءات قانونية، أو سياسية، تنسجم مع الاتجاهات السلبية المناهضة للآخرين؛ كما هو الحال بالنسبة للأحزاب اليمينية في أوروبا المناهضة للمهاجرين، أو دعم الأحزاب الدينية المتطرفة في إسرائيل المناهضة للفلسطينيين.

وفي حالة عاطفة الحب أو القبول، فإن الاتجاهات الحاملة لمثل هذه العواطف الدافئة غالبا ما يستعين بها الناس لتحقيق التكيف مع البيئة الاجتماعية، والتواصل في علاقات العمل، والاستمرار في الوضعيات القاسية، وحل المشاكل، وتخطي المتاعب اليومية؛ بالإضافة إلى تحقيق صف من الحاجات النفسية، مثل القبول الاجتماعي، والرضا النفسي، وتأكيد الذات، والنجاح في الحياة، ولفت الانتباه، وغيرها، من الحاجات المذكورة في أنموذج إبراهيم ماسلو⁽⁹⁾.

والمثير للاهتمام أن هذه المظاهر السلوكية الخاصة بالمكون العاطفي في الاتجاهات الإيجابية هي الأخرى لها علاقة بقضايا الأمن، من حيث أنها تساعد على خلق مناخ قبول الآخر والتسامح، والاعتراف بالآخر، والميل نحو تفضيل الأساليب الهادئة والسلمية في التعامل مع الآخرين، ومعالجة القضايا المعقدة أو المثيرة للخلاف، كما هي الوصفة المقدمة من قبل أنصار نظرية الجماعة الأمنية¹⁰.

2. المكون المعرفي: هو الآخر لها آثاره المساوية على إذكاء النزاعات والتوترات المجتمعية اشتقاقا من الافتراض العام للمقاربات المعرفية¹¹ في تحليل قضايا الأمن، والقاضي بأن النزاعات والحروب والميول العنيفة تتفاعل في المجالات الإدراكية للناس، قبل أن تتجسد على البيئة الاستراتيجية الفعلية للنزاع.

وعادة يشق هذا المكون من المضمون غير المادي للهوية والثقافة والمعارف والأفكار والمضمون الرمزي بصفة عامة، على اعتبار أن الاتجاهات النفسية تصنع في سياق ثقافي معرفي معين، وتتمظهر بخاصيات وخصوصيات الثقافة الاجتماعية الشائعة في المجتمع، ومن أكثر تجليات العلاقة الوثيقة بين المكون المعرفي للاتجاهات النفسية والنزاعات الأهلية هو التطرف المتعدد الأشكال (ديني، جهوي، طائفي، مذهبي وحتى إيديولوجي) على افتراض أن هذا العنصر في الاتجاهات، يتضمن منظومة الاعتقادات والإدراكات والمعلومات وتراكم الخبرة الذاتية، وكل ما يدخل في تكوين البنية المعرفية للفرد.

يبني الكثير من الأفراد اتجاهاتهم وفق ما يتوفر لديهم من معلومات، خاصة في الوقت الحالي الذي انتشرت فيه وسائل الإعلام بشكل كبير، وملأت الحياة الاجتماعية للأفراد. وهو ما جعل بالطبع العلاقة بين الاتجاهات والنزاعات في هذا المستوى من التحليل تؤدي إلى الاتجاهات السلبية الحادة

التي عادة تساعد على تصلب المواقف وحدة السلوك الاجتماعي، المشتقة من التبريرات المعرفية والمضمون الرمزي، والخبرة التي يحملها الأفراد، مما يجعلهم يمارسون سلوكيات معينة تبدو بالنسبة إليهم منطقية ومنسجمة مع ما يعتقدون، أو يدركون، أو ما خبروا من قبل.

فعلى سبيل المثال، أن الاتجاهات السلبية الحادة للمعارضة السورية كما يصورها البعض إزاء الحكومة في دمشق مشتقة جزئياً من الخبرة التاريخية القاسية لهذه المعارضة مع الحكومة وبالأخص منذ ثمانينات القرن العشرين، عبر القتل الجماعي في مدينة حماة، والتعذيب داخل السجون، بالإضافة إلى العداء الظاهر بين الأحزاب الإسلامية واليسارية الماركسية في الحاضر، هو مشتق جزئياً من تلك الخبرة القاسية حول الصراعات المريرة بين الطرفين، منذ ستينات القرن العشرين في المنطقة العربية، والتي مازالت تؤثر في العلاقات بينهما، بالرغم من تغير المناخ السياسي والسياق النظري بين تلك المرحلة والوقت الراهن.

والنتيجة، أن للإتجاه النفسي تصور معرفي في ذهن الفرد، قبل التعبير عنه سلوكياً، ولهذه النتيجة أثرها المنهجي في تحليل قضايا الأمن والنزاعات الأهلية، عند الربط بين البيئة المعرفية والنفسية للفواعل المجتمعية، ذات العلاقة بموضوع التحليل.

3. المكون السلوكي: يرتبط هذا المكون بالتصرف الفعلي إزاء موضوع الاتجاه، إما بالدعم والتأييد في حالات الاتجاهات الايجابية، أو الرفض والتحطيم في حالة الاتجاهات السلبية، وبالأطبع فكلاهما له علاقة بقضية النزاعات والاستقرار الأمني، والمهم أن الاتجاهات النفسية في هذا المستوى التفاعلي تكون جد معنية بالبيئة الفيزيقية، بسبب الآثار المادية على البيئة الاجتماعية، ولم تبق حبيسة المجال النفسي والمعرفي للأفراد، ويعبر المكون السلوكي عن العنصرين السابقين بشكل يتحول إلى مؤشر ملموس، عن ما يعتقد ويشر به الفرد، وبالتالي، يكون قابلاً للقياس وأكثر مصداقية.

وفي الوقت نفسه، يشير إلى حالة التماسك في شخصية الفرد بين ما يدركه وما يفعله، على افتراض أن الناس في الحالة العادية يتصرفون وفق توجيه الاتجاهات التي يحملونها، لكن هذا ليس في كل الظروف، هناك الحالات التي يميل فيها الأفراد إلى إخفاء اتجاهاتهم ويرفضون البوح بها، إما خوفاً أو بتأثر من خبرة سابقة مؤلمة، وغالباً ما ينتشر سلوك إخفاء الاتجاه وعدم الإعلان عنه في المجال السياسي، خاصة في أوقات الانتخابات العامة، إذ أن الكثير من الناس لا يصرحون بالجهة التي صوتوا عليها إذا كانت من أحزاب المعارضة، تفادياً لأي مشاكل في المستقبل تتعلق بمستقبلهم المهني، أو احتمال حرمانهم من الإفادة من امتيازات معينة، لكن في حالة الاتجاهات السلبية المزمنة لا تصمد انفعالات الفرد أمام الإندفاع العاطفي والانفجار النفسي في شكل سلوك عدواني واضح، أو في حالة الإتجاهات الإيجابية التي تظهر ملامح الفرح الزائدة.

المحور الثالث: الإتجاهات السلبية للأمن والنزاعات الأهلية.

وفي الواقع، يتحدد محور التحليل في العلاقة بين الاتجاهات النفسية وظهور النزاعات الأهلية محدد في الطريقة التي تتشكل بها الاتجاهات، وتراكم التجارب المؤلمة والسارة، خلال المسار الاجتماعي للفرد وطريقة تعامله معها وإدراكه لحقائقها، وأيضاً كيف يوظفها في الحياة الاجتماعية اليومية، والافتراض العام هو أن الاتجاهات هي ميول مكتسبة بواسطة التفاعلات السارة والمؤلمة للفرد، مع فواعل محيطه الاجتماعي وموضوعاته وخياراته، وهي تشكل في نهاية المطاف دوافع سلوكية بالإتجاه السلبي التحطيمي أو الإيجابي البناء، من الناحية المنهجية، يميل التحليلي إلى الدراسات الطولية التتبعية لظاهرة التشكل البنائي للاتجاهات، وتحديد مصادر تغذيتها والتمييز بين المهمة أو الرئيسية منها والهامشية، وإذا اعتبرنا أن للفرد في الغالب مصادر متعددة قديمة وجديدة، وأخرى متجددة تنشئ الاتجاهات النفسية وتغذيها باستمرار، إنما تتصاعد إلى مستويات معينة من التراكم، وتؤثر بشكل ملحوظ في السلوك الاجتماعي للفرد.

ويقوم الافتراض العام الذي يؤسس لعملية تكوين الاتجاهات النفسية على فكرة أن الإنسان يولد باستعدادات معينة، لكن طريقة حياته ونظرتة للعالم يكتسبها عبر الحياة والمحيط الاجتماعي، من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، وعملية التعلم الاجتماعي والخبرات النفسية التي يمر بها يومياً في علاقته بالآخرين والموضوعات وحتى الأشياء المدركة لديه.

وللإشارة فإن الأفراد الذين يوصفون أنهم ليبراليون، أو محافظون أو متعصبون، لا يولدون كذلك، وفي بعض الأحيان، لا يختارون أن يكونوا كذلك، ولكن يكتسبون هذه الاتجاهات من مصادر مجتمعية مختلفة، عبر عملية التعلم الاجتماعي، وبواسطة طرق عالية التعقيد، حيث يكون في بعض الأحيان الفرد في اتجاهات دون إرادته وليس لديه القدرة على التخلص من اتجاهات أخرى. ولقد خلصت العديد من الدراسات في حقل علم النفس الاجتماعي⁽¹²⁾ إلى تحديد عمليتين أساسيتين يتم عبرهما تكوين الاتجاهات النفسية، وهما: عملية التعلم الاجتماعي والخبرة المباشرة.

1- عملية التعلم الاجتماعي: تحدث هذه العملية بشكل متعمد أو بطريقة تلقائية عبر الملاحظة، وبسبب الوجود المستمر ضمن محيط اجتماعي مليء بالأشكال المختلفة للسلوك والفواعل الاجتماعية التي تعرض أمامنا أنماذج سلوكية كثيرة، ومن ثم تنتقل الاتجاهات من فرد لآخر، أو من جماعة لأخرى، عن طريق الملاحظة، على افتراض أن أحد المصادر الكبرى للاتجاهات النفسية هو الناس الذين يعيش الفرد معهم، ومن ثم، يكتسب الأنواع المختلفة من الاتجاهات -كفضيلتنا، بغضنا، حيناً، اعتقاداتنا وميولنا السلوكية- من الأشخاص الذين يحيطون بنا، ونتفاعل معهم يومياً، عبر عمليات مختلفة يأتي على رأسها عملية التنشئة الاجتماعية، التي نخضع لها منذ الولادة في الأسرة، ومن بعد ذلك في المؤسسات الأخرى.

والملاحظ أن كل ما يحدث أمام في المجتمع المباشر، أو يُشاهده في المحتوى الإعلامي الذي يعرضه عليه يوميا وبكثافة، أو يتفاعل معه في العالم الافتراضي، يساهم بمستويات مختلفة في تشكيل اتجاهاتنا النفسية نحو القضايا المختلفة ومن وراء ذلك صياغة مواقف وسلوكنا نحوها. إنها العملية التي أطلق عليها روبرت بارون وزميله مصطلح "بالإشراف الأداة Instrumental Conditioning"⁽¹³⁾ الذي يقوم على مبدأ أن الأفراد يتعلمون المواقف التي تنتج المخرجات الإيجابية والمواقف التي تساعدهم على تجنب أو التهرب من النتائج السلبية، فالمخرجات أو النتائج الإيجابية تكتسب من خلال الالتزام أو حتى التعبير عن الاتجاهات المشابهة لتلك التي يحملها الأشخاص، الذين يتحكمون في المكافآت المهمة أو القادرين على تنفيذ العقوبات القاسية، وفي كل هذه الحالات، يكتسب الأفراد اتجاهات معينة كأداة للقيام بوظيفة معينة أو إشباع حاجة معينة، أو تؤدي إلى إنتاج المخرجات أو النتائج المرغوبة والإيجابية.

وتعد الطريقة الأخرى التي تُكتسب بواسطتها الاتجاهات والتي أُصطلح عليها أنصار نظرية التعلم الاجتماعي "بالنمذجة Modeling"⁽¹⁴⁾، التي تقضي بأن الأفراد يتعلمون أشكالاً مختلفة من السلوك الاجتماعي، عبر ملاحظة كلمات أو سلوك الآخرين، الذين يمثلون النموذج السلوكي الجذاب للإقتداء به، حتى في غياب كلي للمكافآت المادية المباشرة للقيام بذلك.

ويظهر ذلك بوضوح وسرعة في سلوك الأطفال الذين يتقنسون المشاهد والحركات، وحتى الكلمات التي يشاهدونها في أفلام الكرتون أو المسلسلات التلفزيونية، ويتحول فواعل المشاهد إلى أبطال وأنماذج بالنسبة لهم، في مثل هذه المواقف، ويحمل الصغار بسرعة الإتجاهات من أهمياتهم وآبائهم أو من أبطال التلفزيون، ويتبنونها في حياتهم، وبغض النظر عن وجود قصد في النموذج لتبني هذا السلوك أو لا، فإن تأثيرات النمذجة هي قوية تماماً، ويمكن أن تمارس تأثيراً طويلاً المدى على الاتجاهات النفسية للأفراد⁽¹⁵⁾ عبر النمذجة.

2- تأثير الخبرة المباشرة: يتفاعل الأفراد مع الموضوعات والقضايا والفواعل المجتمعية يوميا، بحيث تتحول مثل هذه التفاعلات إلى خبرة سارة أو مؤلمة، التي بدورها تخلق اتجاهات موجبة أو سلبية نحو القضية أو الطرف المعني، على سبيل المثال، والأفراد الذين كانت لديهم خبرة مؤلمة مع الشرطة عادة يكونون اتجاهات سلبية نحو استخدام الشرطة للقوة ضد المتظاهرين في الشوارع، أو عند القبض على المجرمين، والأكثر من ذلك تؤدي بهم مثل هذه الخبرة إلى تصاعد الريبة تجاه كل مواقف وسلوكيات الشرطة، ولا يؤيدون أن يكون أحد من عائلاتهم يعمل ضمن صفوف الشرطة، كذلك بالنسبة للأشخاص (سواء راشدين أو مراهقين) الذين كانت لديهم خبرة مؤلمة مع أحد والديهم، فعادة يتبنون اتجاهات معادية أو على الأقل سلبية نحوه، وتبقى ملازمة لهم تطفو وتختفي، من حين

لآخر عندما يحدث إحتكاك حاد بين الابن وأحد والديه المعني، ولهذا فإنه يفترض أن الكثير من الناس لا يبنون اتجاهاتهم نحو الآخرين إلا بعد الاتصال بهم مباشرة، أو عن طريق وسائط مختلفة واختبار عواطفهم وسلوكياتهم، وفي العديد من الحالات، تنبع الإتجاهات من الخبرة المباشرة مع الأشخاص والأفكار والجماعات أو الموضوعات، التي نختبرها ونحتك بها مباشرة، وهذا ما جعل روبرت بارون وزميله⁽¹⁶⁾ يؤكدان على أن الاتجاهات التي تتطور عبر الخبرة المباشرة. بين الأفراد والموضوعات عادة ما تبدو أقوى وأسهل على التذكر من نظيرتها التي تكتسب عن الطريق غير مباشر.

وعلى العموم، فإن يناقش هذا المحور العوامل المساعدة على بناء الاتجاهات النفسية ذات العلاقة بقضايا الأمن والاستقرار الأهلي، والتي تتعلق بالمضامين السلبية والتقييمات السلبية للذات والبيئة الاجتماعية المحيطة، تتكون لدى الأفراد كنتيجة لظروف اجتماعية قاسية، أو تجارب مؤلمة، أو سوء إدراكات وسوء فهم، تدفعهم نحو الخيارات القاسية أو الأفكار المتطرفة، التي تناهض استقرار وأمن المجتمع، ويمكن تحديد هذه العوامل في مجموعة النقاط التالية:

1. يمكن أن يولد إشباع الحاجات بشكل مرضي الاتجاهات الإيجابية، وكذلك من المحتمل أن يؤدي العجز في إشباع مثل هذه الحاجات التي تشكل الاتجاهات السلبية نحو المصادر التي يعتقد الفرد أنها المسؤولة عن ذلك، وسوف تتصاعد الاتجاهات السلبية في الحدة، وتستمر إلى أن تتحول إلى تهديدات أمنية فعلية⁽¹⁷⁾.

2. تحمل التأثير المتزايد لجماعات الانحراف والإجرام -عادة- اتجاهات مضادة للمجتمع، مبررة بواسطة فلسفة واعتقادات خاصة بها، تشكل مضمون الإتجاه الموجه للسلوك المضاد للمجتمع، مثل بلورة مقولات وخطابات تعطي تفسيراً متماسكاً لأفراد الجماعة حول أعمالها، مثلاً نحن ضحايا المجتمع ونريد أن نعيش بطريقتنا، لقد تعرضنا إلى معاملة سيئة في طفولتنا، هي مجرد عمل نقوم به، قسوة الحياة تبرر عملنا، نقدم للناس ما يحتاجون إليه؛ وغيرها من المضامين التي تملأ وعاء الاتجاهات المضادة للمجتمع، التي تحملها الجماعات وتعلمها إلى القادمين الجدد.

إن دور الجماعات في إعادة الأعمال غير الآمنة محددة في توفير المناخ المناسب لاحتواء المراهقين المتسربين من المدارس، والمشردين والفارين من البيوت، والذين -عادة- هم غير مزودين بمهارات معينة، وذوي خبرة متدنية بالمجتمع، والذين تنقل إليهم جماعات الانحراف الأشكال المختلفة من الإجرام، وتعلمهم فنيات استخدام الأسلحة البيضاء، وحتى النارية في تنفيذ العمليات الإجرامية المتخصصة فيها.

3. يمكن أن يتدخل عامل الشخصية في تكوين الاتجاهات المضادة للمجتمع، وذلك من خلال تلك الاضطرابات النفسية، والعقد النفسية، والشعور الحاد بالنقص، وضعف الشخصية، والعاهات العقلية، مثل التخلف العقلي⁽¹⁸⁾، وكلها عوامل تدفع نحو بناء الإتجاهات بطريقة سلبية نحو المجتمع ومكوناته وفواعله، وحتى نحو ذاته وقدراته، وهذه الإتجاهات ليست مشتقة من حقائق

العالم الموضوعي، بقدر ما تتغذى من فجوات النمو الاجتماعي والمعرفي والعقلي للفرد، ويمكن أن يدرج تحت هذا العامل تلك الإتجاهات المتطرفة، حول وجود عالم بغيض يستحق أن يدمر، من تصور أن الناس كلهم لصوص لابد أن لا أكون مستثنى من ذلك.

4. يتحدد العامل الرابع في تكوين الاتجاهات السلبية في التنشئة السياسية⁽¹⁹⁾ المغلقة والمظلمة، التي تدفع الناس إلى الخيارات الخاطئة من أجل تحقيق أو حماية مصالح طرف معين، أو إشباع نزوات جنونية معينة، مثل تلك التنشئة التي تبنتها الأنظمة التسلطية الشمولية في أوروبا في ثلاثينات القرن العشرين، ودفعت بملايين البشر للإقتال في الحرب العالمية الثانية، أو تلك التنشئة التي تخضع لها الجماعات الاثنية والمذهبية وحتى الدينية لتعبئة أعضائها وتكوين الاتجاهات المناوئة لبعضها البعض؛ كما هو جاري في الشرق الأوسط وإفريقيا، وهي التي تعد سببا وراء بقاء جماعات معينة تمارس العنف المسلح لعشرات السنين ضد حكوماتها، أو ضد بعضها البعض، على افتراض أن التنشئة السياسية تضفي المعنى العنيف والصدامي للانتماءات الإثنية، والمذهبية، والقبلية والدينية.

5. تتدخل الأسرة في صناعة الاتجاهات النفسية السلبية، بواسطة المعاملة الوالدية القاسية، أو بواسطة الظرف القاسي الذي تمر بها الأسرة، ويكون ضحايا الأوليين الأولاد، مثل حالة التشرد، والتفكك الأسري، والفقر المدقع، ولقد تحدث الباحثون في علم النفس الاجتماعي⁽²⁰⁾ عن قائمة من الأساليب القاسية المنتجة للإتجاهات السلبية والموجهة للسلوك نحو خيارات الانحراف، مثل التثبيط، والتقييد، والإهمال، والرفض الاجتماعي، وغيرها.

6. كذلك يتدخل الاتصال الشخصي للفرد بالمحيط الاجتماعي العنيف أو المنحرف، وتعرضه المكرر للمحتوى الإعلامي الذي يحث على سلوك العنف واستخدام الأسلحة، كلها عوامل اتصالية تساهم في تكوين الاتجاهات النفسية السلبية التي تخلق الجريمة وعنف الشوارع وغيرها، وقد ورث الكثير من البحوث⁽²¹⁾ عن دور وسائل الإعلام عن خلق عنف الشوارع والجريمة لدى الأطفال والمراهقين، بناء على تصور أن الاتجاهات هي ميول متعلمة بواسطة أنماذج نلاحظها ونتفاعل معها اتصاليا، في شكل مباشر، أو غير مباشر، وكذلك تلك المصادر التي لا تمارس عليها رقابة رسمية أو اجتماعية، مثل الإنترنت. وعليه، فإن الفرد يتعلم الثقافة "السفلية" التي تملأ محتوى الاتجاهات النفسية، والتي عادة ما تحث على السلوك المنحرف، وتمجد الفعل التدميري في الشخصية، فهي المصدر الذي تشتق منه الاتجاهات السلبية قوتها، وتبريرها للسلوك غير الاجتماعي المضاد للنظام العام في المجتمع.

نتائج البحث :

لقد تبين أن الاتجاه هو النفسي الذي يوجه الفرد نحو موقف سلوكي معين حيال البيئة الاجتماعية التي تتسم بالتفاعلية، حيث أن هذا الفرد يلجأ الفرد إلى وسائل الخراب والعنف والثأر

والاقتصاص من المجتمع، ونتيجة الخبرة المكتسبة والخلفيات المجتمعية السلبية، تصل ردود الأفعال هذه إلى درجة تمرد جمهور الأفراد، وتهديد النسيج السوسولوجي فيها، وتتحول إلى مصدر كبير لتقويض الإستقرار الأمني سلبيا، ونشوب النزاعات الأهلية، وتمدد حالة الأزمة الأمنية هذه إلى خارج الحدود الوطنية، لتمس مختلف مستويات الأمن. ويمكن استخلاص مجموعة من النتائج حول دور الاتجاهات النفسية في إحداث النزاعات وتصعيدها، عبر الحدود الوطنية للدول والمجتمعات، في مجموعة النقاط التالية:

1. تندرج الاتجاهات النفسية ضمن مستوى بيئة الإنفعالات والمشاعر والعواطف للأفراد، التي تأخذ نسقا مجتمعيًا يخلق مواقف سلوكية سلبية، تؤثر على استقرار المجتمعات والدول؛ وبالتالي تصبح البيئة النفسية مجالا حيويًا لفهم وتحليل النزاعات الأهلية، لاسيما تلك خاصة التي تجري عبر إقليمي في الشرق الأوسط المعاصر.

2. هناك صعوبة متزايدة في التحكم في مسار الإتجاه وحدة تأثير على سلوك الفرد، مما يضع صعوبة متزايدة حول التنبؤ بالمرجات السلوكية ومستوى حدتها؛ وهذا يعني من جهة أخرى خلق صعوبة متزايدة في التحكم في الآثار الأمنية المترتبة عن الاتجاهات النفسية، مثلا اتجاه كراهية الآخر، والإحتقان الطائفي، ونبذ أفكار الآخر، والشعور بالاضطهاد، وغيرها، من الاتجاهات النفسية المقوضه للسلم الأهلي.

3. كما يمكن أن تعمل الإتجاهات النفسية في الإتجاه السليبي المقوض للسلم الأهلي، وأيضا يمكن أن تساعد على تثبيت الإستقرار الأهلي، عبر انتشار الاتجاهات الإيجابية الخاصة بالتسامح، والاعتراف بالآخر، وتقبل الآخر، وقابلية الاتصال الاجتماعي مع الآخرين، وغيرها، من الانجاهات التي تدفع الأطراف نحو مفهوم التعارف مع بعضها البعض.

4. بالرغم من جانب التعقيد في فهم الاتجاهات النفسية التي يحملها الأفراد والجماعات حول الموضوعات المختلفة، إلا أنها تشكل -في عمومها- جزء مهما في تحليل وفهم النزاعات الدولية، الأهلية والتقليدية على حد سواء؛ وبالتالي تشكل مستوى للتحليل الأمني إلى جانب البنية المعرفية الإدراكية، والسياق الاقتصادي-الاجتماعي، والعمليات السوسولوجية مثل التنشئة الاجتماعية.

الهوامش :

(1) محمد خالد الطحان: "مقياس الاتجاهات الوالدية كما يدركها الأبناء"، المجلة العربية للبحوث التربوية 01 يناير 1983 ص 73.

(2) أحمد عطوة: الاتجاهات النفسية في علم النفس الاجتماعي: أسسه وتطبيقاته، تر. زين العابدين درويش (القاهرة: دار الفكر العربي، 1999)، ص ص 90-91.

(3) المرجع نفسه.

- (4) أحمد زكي صالح: علم النفس التربوي، أ.ج. 2 (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1972)، ص 864.
- (5) عبد المجيد نشواني: علم النفس التربوي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1987)، ص. 252.
- (6) محمود السيد أبو النيل: علم النفس الاجتماعي، (بيروت: دار النهضة العربية، 1985)، ص 450.
- (7) Stephen W. Littlejohn: Theories of Human Communication (Columbus, Toronto, London, Sydney: Charles E. Merrill Publishing Company, 1978), p166.
- (8) أحمد عطوة: مرجع سبق ذكره، ص 91.
- (9) Abraham H. Maslow: «A Theory of Human Motivation», in Sources : Notable Selections in Psychology, ed. Terry f. Pettijohn, 2th ed. (United States of America : Dushkin/McGraw-Hill, a Division of The McGraw-Hill Companies, Inc., Guilford, 1997), pp188-89.
- (10) Emanuel Adler and Michael Barnett: « Security Communities in Theoretical Perspective, » in Security Communities (United Kingdom : Cambridge University Press, 1998), pp 48-56.
- (11) Brian White: «Foreign Policy And Foreign Policy Analysis,» in An Introduction to Foreign Policy Analysis, ed. Michael Clarke & Brian White (Great Britain : G.W. & A. Hesketh, 1981), pp 07-21.
- (12) Larry A. HJelle & Daniel J. Ziegler: Personality Theories : Basic Assumptions, Research, and Applications, 3rd ed. (New York: McGraw-Hill International Editions, 1992), pp 373-84.
- (13) Robert A. Baron & Donn Byrne: Social Psychology : Understanding !human Interaction, 4th ed . (Bostin, London, Sydney, Toronto: Allyn and Bacon, Inc., 1984), p 127.
- (14) لويس كامل مليكة: العلاج السلوكي وتعديل السلوك، ط. 2 (د. م. ن.، 1994)، ص ص 103 - 10.
- (15) Robert A. Baron & Donn Byrne, Op. Cit., p128 .
- (16) Ibid., p 129.
- (17) السيد محمد خيرى ومحمود الزيات: محاضرات في علم النفس الاجتماعي (مصر: مطبعة دار التأليف، 1972)، ص 197.
- (18) المرجع نفسه، ص 205.
- (19) صالح أحمد زكي: الأسس النفسية للتعليم الثانوي (د. م.: دار النهضة العربية، 1972)، ص 396.
- (20) عامر مصباح: التنشئة الاجتماعية والسلوك الانحرافي في المدرسة (الجزائر: دار الأمة للنشر والتوزيع، 2005)، ص ص 104 - 105.
- (21) محمد سلامة ومحمد غبارة: مدخل علاجي جديد لانحراف الأحداث (الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، 1989)، ص 42.